مقدمة الكتاب

الحمـد لله حمـدًا يليق بجلال وجهه الكريم، والحمد لله على منه وكرمه وفضله، والحمد لله أن يسر لى أن أقدم لهذا الكتاب فى طبعته الخاصة لدار المعارف المصرية، فبعد أن لاقى كتاب تاريخ النظم والحضارة الإسلامية من الانتشار بتوفيق من الله عز وجل، فإن السعادة غامرة فى أن يقدم المؤلف لطبعة جديدة لأحد كتبه لاسيما أنه فى تاريخ النظم والحضارة الإسلامية.

والحضارة الإسـلامية تتجدد بتجدد الحياة للأمة الإسـلامية التى وضع سـلفها الصالح أسسـها التى استمدوا أصولها من القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ، ثم اجتهدوا وأعملـوا فكرهم فأضافوا وطوروا وجددوا وأبدعوا فى كافة مجالات هذه الحضارة التى أضاءت بنورها أرجاء العالم شرقًا وغربًا.

لقد أمضيت فى دراسة وتدريس الحضارة الإسلامية ونظمها المختلفة سنين عددًا، وناقشت جوانب متعددة لهذه الحضارة، وأصلت لتاريخ النظم الإسلامية موضحة دور الأمة الإسـلامية فى وضع اللبنات الأولى لتلك النظم منذ قيام الدولة الإسـلامية الأولى وذلك بعد هجرة المصطفى ﷺ من مكة إلى يثرب التى تحولت بقيام الدولة الإسلامية إلى المدينة المنورة العاصمة الأولى لهذه الدولة.

وفيها استكمل النبى ﷺ بناء هذه الدولة، مدعما أركانها، وفيها أيضًا أى المدينة المنـورة تـوالى نـزول الوحى عليه ﷺ ليتم بذلـك القرآن الكريم دسـتور الأمة حيث يُستكمل البناء وتترسخ دعائمه.

إن الحضارة الإسلامية هى إضافة الأجيال المتتالية من علماء المسلمين من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمؤرخين والرحالة والجغرافيين، والفلكيين وعلماء الطبيعة والكيمياء

والطب والصيدلة والأعشاب، بالإضافة إلى الفنانين من المعماريين والموسيقيين، وعلماء الرياضة والجبر، مما أكد ريادة هذه الأمة، وفضلها على العالم شرقه وغربه.

من أجل ذلك كان اختيارى لعنوان هذا الكتاب: «تاريخ النظم والحضارة الإسلامية»؛ والذى كانت أولى طبعاته فى نهاية السبعينيات من القرن الماضى؛ وقد كان اختيارى لهذا الموضوع إيمانًا بأهميته القصوى للطلاب والباحثين بالإضافة إلى ما يمليه ضمير المؤرخ المسلم من ضرورة التأصيل للنظم الإسلامية، التى تشمل النظم السياسية والإدارية، والنظم الاقتصادية، والقضائية، والعسكرية، فضلاً عن النظريات المختلفة التى وضع أسسها العلماء المسلمون فى العلوم والآداب، فى العمارة والبناء والتشييد، ولقد كان المسجد النبوى الشريف الذى وضع لبناته الأولى محمد (ﷺ) نواة للمدرسة والجامعة والبرلمان، ومجلسا تعلم فيه المسلمون أدب الدين وأدب الدنيا، هذا المسجد كان النموذج الذى احتذاه العالم للمدرسة والجامعة، ومنه انطلقت إشعاعات الحضارة والفكر والثقافة والعلم، لتتعلم الدنيا على أيدى العلماء المسلمين الذين جابوا الآفاق ينقلون منهم أينما حلوا القيم الحضارية الإسلامية.

ويتضح فى طيات فصول هذا الكتاب العوامل الأساسية التى أسهمت فى ازدهار الحضارة الإسلامية وشجعت على قيام النظم الإسلامية سياسيًا وإداريًا وقضائيا وعسكريا، ويأتى على رأس تلك العوامل: الحرية الفكرية والمناخ الحر الذى أتاحه الإسلام لهذه الأمة بكل عناصرها المختلفة فالإسلام يسوى بين الأجناس والألوان، ويسمح بتلاقح الحضارة والثقافات، ولا يقبل بانغلاق الأمة على ذاتها وانكفائها على تراثها، وإنما كان لأهل البلاد المفتوحة والشعوب الداخلة فى الإسلام دور مهم فى إثراء الحضارة الإسلامية واستمرارها وتجددها.

لقد حفظ المسلمون تراث الإنسانية، ونقلوه بدقة وأمانة، وكانوا همزة الوصل بين القديم والجديد وتفاعلوا مع حضارات وثقافات البلاد التى دخلوها حاملين معهم قيم الحرية والتسامح والعدالة والفرص المتكافئة، ومن أجل ذلك كان التطور الدائم والمستمر والتدفق الهائل للأفكار والإبداع والإضافة.

ويأتـى الكتاب فى عشـرة فصول يناقـش الفصل الأول مصادر دراسـة الحضارة الإسلامية، التى تتميز على غيرها من الحضارات بمصدرين فريدين هما القرآن الكريم والسـنة النبويـة المطهرة؛ ومع ذلك فهى تشـارك الحضارات الأخـرى فى المصادر المختلفة كالآثار والمصادر المكتوبة وغير ذلك.

أما الفصل الثانى فقد خصصته لدراسـة النظم السياسـية وهـى النظم التى وضع المسلمون قواعدها ونظرياتها ومن ثم قامت الخلافة الإسلامية والوزارة والإدارة.

أمـا الفصل الثالث ففيه دراسـة للنظم الإدارية التى وفقهـا نُظّم العمل فى أرجاء الدولـة حيـث كان لعمال الخلافة الدور الأهم فى حفـظ الصلة بين العاصمة المركزية وأقاليـم الدولة، مع وضعنا فى الاعتبار التطورات المختلفـة والعوامل والظروف التى اتحدت جميعا لتؤثر فى وحدة الدولة الإسلامية وتماسكها.

اهتم الفصل الرابع بقضية رئيسية فى النظم الإسلامية وهى قضية العدالة، فكانت النظم القضائية وملحقاتها كالشـرطة والحسـبة والنظر فى المظـالم؛ حيث يظهر من خلال هذه الدراسـة أن الوظيفة الأساسـية للدولة الإسـلامية هى حماية الإنسان فى كافـة الظروف؛ وإقامة العدل بين أفـراد الأمة ضمانا لحرية العقيدة وحرية الفكر من أجل رخاء المجتمع.

فـى الفصل الخامس يجد الباحث دراسـة للنظـم المالية والاقتصاديـة والنظرية الاقتصادية الإسلامية التى تقوم على عدالة توزيع الثروة وحماية مصادرها وتنميتها، وقد دعم القرآن الكريم هذه المبادئ الأساسية، وطبق خلفاء رسول الله ﷺ هذه المبادئ وشددوا على عمالهم بضرورة تطبيقها ضمانا للعدالة، وصونا للحقوق.

ويأتى الفصل السـادس ليدرس النظم الإجتماعية التى تحرص على سـلامة الفرد والمجتمع، وصيانة المجتمع الإسـلامى، والتأكيد على حقوق المرأة الأم والزوجة من أجل اتساق بنيان المجتمع الإسلامى وصونا لكرامته واعتبار الزواج الأصل الثابت فى بناء الأسرة والنواة الأولى لبناء هذا المجتمع.

ولا تكتمـل دراسـة النظم والحضارة الإسـلامية إلا بإظهار دور العلماء المسـلمين

والمفكرين المسلمين فى المجالات المختلفة فى العلوم والآداب، التى كان للمسلمين فيها انجازات ماتزال البشرية تنهل منها وتستعين بها، وتضيف إليها، اعترافًا بفضل وجهود علماء المسلمين من العرب والترك والفرس وغيرهم، فالحضارة الإسلامية هى التى صهرت تلك الأجناس، وزاوجت بين الأفكار المختلفة، واحترمت عقلية المسلم أينما كان وكيفما كان عرقه أو لونه أو ثقافته، ثم كان لابد من دراسة النظم العسكرية التى حمت هذا البناء الحضارى، وقد خصصت لها الفصل الثامن، وفيه تناولت النظم العسكرية منذ عصر النبوة وكيف تطورت بناء وتسليحا وتكتيكا عبر العصور الإسلامية المختلفة، وعلى أكتاف هؤلاء الأجناد كان الفتح الإسلامى الذى أدخل الإسلام إلى الصين شرقًا وإلى أوروبا غربًا.

وكان الفتح الإسلامى يتم وفق منهجية تعترف بحق أهل البلاد المفتوحة فى أراضيهم وأموالهم، مع احترام مقدساتهم وأماكن عبادتهم وهنا يجب أن نشير إلى دخول الفاروق عمر رضى الله عنه بيت المقدس، عندما دعى لتسلمها، وكيف علّم الأجناد احترام أماكن العبادة، كما علم الفاتحين قوادًا وجنودًا حتمية احترام العهود والمواثيق تطبيقًا لسنة النبى ﷺ .

فى الفصل التاسع نماذج لمراكز الإشعاع الحضارى فى عواصم المسلمين التى أقاموها فى العراق ومصر وشمال إفريقيا فكانت كلها تستقبل العلماء والطلاب والباحثين وفيها كانت المراكز العلمية والمكتبات والمراصد والبيمارستانات تأكيدا عمليًا على أن المسلمين الفاتحين إنما خرجوا لينشروا الإسلام والحضارة الإسلامية، ولم يخرجوا أبدًا كما يزعم بعض المستشرقين من أجل أسباب اقتصادية أو من أجل مصالح دنيوية.

أما الفصل العاشر وهو ختام هذا الكتاب ففيه أناقش فضل الحضارة الإسلامية على أوروبا، وكيف كان دور علماء المسلمين فى الأندلس الذين استطاعوا أن يؤثروا فى العقلية الأوروبية الوسيطة، وأن ينقلوا أوروبا من عصور الجهل والظلام التى عاشتها شعوبها خلال العصور الوسطى فى تناحر سياسى وشقاق دينى واختلاف مذهبى، وحروب دامية إلى عصور الحرية والنهضة والرخاء. لقد انتقل التراث القديم إلى أوروبا عبر ترجمات المسلمين، ونشأت الجامعات بتأثير واضح وملموس من الفكر الإسلامى،

وكان للفلسفة الرشدية دورها الذى لا تنكره أوروبا فى تطوير الكثير من المفاهيم العقيمة كما كان لكتب ابن سينا والرازى فى الطب والخوارزمى فى الجبر وغيرهم من علماء المسلمين أثرها المعترف به فى النهضة الأوروبية.

وبعد: فإن فصول هذا الكتاب تقدم الحضارة الإسلامية ونظمها وقيمها وأفكارها لترد على كل منكر لفضل هذه الأمة صاحبة هذه الحضارة، ولترد أيضا على المحاولات المغرضة والإساءات المتعمدة للإسلام ولنبى الإسلام محمد ﷺ، فى عالم يدعى حرية التفكير ويتشدق بالحريات المختلفة، ويزعم ريادة لم يكن له دور فيها.

ونحن هنا لا نريد أن نقلل من قيمة الإنجازات العلمية التى حققها العالم فى مجالات التكنولوجيا والفضاء والاكتشافات العلمية والطبية الحديثة وغيرها فنحن نقر بأن هناك تطورات غير مسبوقة حققها العلم شرقا وغربا بينما تخلفت بلادنا العربية والإسلامية، ولا نريد وإن كان هذا حقيقة أن نلقى باللائمة على الاستعمار القديم والحديث والقوى الكبرى، والقطب الواحد وما إلى ذلك وإنما نود أن نقرر أن الحضارة الإسلامية بنظمها السياسية والإدارية والاقتصادية وغيرها كان لها دورها الرائد، علمت الدنيا، ونحن هنا نؤكد على ضرورة استنهاض همم هذه الأمة، وقيام رجالها ومفكريها من أجل الإسهام الفعال فى نهضة حقيقية للأمة التى وصفها رب العزة تبارك وتعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس.

هذه دعوة للتأمل ودراسة ما قدمت هذه الأمة للبشرية، من أجل أن تعود لتؤدى دورها الريادى الذى شهد لها به العلم، ومن أجل أن يثبت أبناؤها قدرة العقول الإسلامية على أن تقوم بدور أساسى ومؤثر فى مسيرة الحضارة الإنسانية المعاصرة.

أدعو الله أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه وأن تتم به الفائدة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. فتحية النبراوى

مدينة نصر

٣ ذو القعدة ١٤٢٩هـ/ ١ نوفمبر ٢٠٠٨م